المصدر : الاهرام
التاريخ : ٨ فبراير ٢٠٠٢

فى التحولات الدولية بعد ١١ سبتمبر

مع بداية التسعينيات، واختفاء الاتحاد السوفيتى كقوة عظمى كانت تشارك على مدى نصف قرن تقريبا فى صياغة النظام الدولى وعلاقاته وقواعده، سجل الباحثون والمحللون هذا الحدث باعتباره بداية لعهد جديد فى العلاقات الدولية وأصبح الحديث يدور حول «ما بعد الحرب الباردة» والبحث عن طبيعة ومقومات النظام الدولى الجديد.

وعلى الرغم من الاختلافات بين اختفاء قوة عظمى من المسرح الدولى، وبعدما تعرضت له الولايات المتحدة فى ١١ سبتمبر ٢٠٠١، إلا أن هذا الحدث الأخير باعتبار ما تميز به من تحد للقوة العظمى الوحيدة فى العالم، ومعانيه الشاملة، أصبح ينظر إليه باعتباره بداية لنظام عالمى يختلف فى علاقاته وأولوياته عن عالم ما قبل ١١ سبتمبر، وقد عبر عن هذا التحول عالم السياسة الأمريكى ارنست ماى الاستاذ بجامعة هارفارد حين قال إنه لم يكن يطرأ لأحد أن حدثا إرهابيا تتعرض له الولايات المتحدة يمكن أن يطلق علاقات مختلفة تماما بين القوى العظمى، وأن يعيد بوجه خاص قوى أساسية مثل الولايات المتحدة وروسيا والصين إلى ما كانت عليه تقريبا نهاية الحرب العالمية الثانية مباشرة.

يهدف هذا المقال إلى تتبع ورصد أهم التحولات التى حدثت فى علاقات القوى الدولية والإقليمية بفعل أحداث ١١ سبتمبر وما احدثته فى توجهات ومواقف كانت تعتبر مواقف تقليدية لعدد من الحكومات علاوة على الآثار الثقافية والحضارية والتى إن لم يكن هذا الحدث قد أطلقها إلا أنه قد ضاعف منها وأبرزها إلى السطح. ولعله من الجدير أن نبدأ بالولايات المتحدة ذاتها باعتبارها موقع الحدث ومصدره والأكثر تأثرا به بما أحدثه فى تصورها عن نفسها وعن العالم، ولعل أبلغ تأثير تعرضت له الولايات المتحدة هو أنه هز الصورة التقليدية عن الأمن الذى كانت تشعر به، ونقل هذا التهديد من الخارج إلى الداخل، ومن قوى محددة ومعروفة إلى قوى مجهولة مراوغة تتحرك وتنتشر عبر العالم، ولهذا لم يكن غريبا أن يكون رد الفعل المباشر لهذا الحدث هو أن العالم قد تغير، وأن أمريكا قد تغيرت وأن رئيسها قد أصبح «إنسانا آخر» فيما عبر مسئول كبير فى الإدارة الأمريكية، وأنه بالنسبه لها فإن عالم ما بعد ١١ سبتمبر سيكون مختلفا عما قبله. وقد كان رد الفعل المباشر للرئيس الأمريكى فى توجهه إلى العالم وما تتوقعه الولايات المتحدة منه قاطعا حيث وضع دول العالم موضع الاختيار: إما الوقوف مع الإرهاب، وإما تأييد الولايات المتحدة فى حربها ضده. وحتى هذه اللحظة تبدى الولايات المتحدة ارتياحا للاستجابة الدولية على مختلف مستوياتها لحملتها ضد الإرهاب ويبدو لنا أن العالم هو الذى كيف نفسه وغير عدد من القوى الدولية مواقف وتوجهات كانت تعتبر من مواقفها التقليدية لكى تحقق التوقع الأمريكى، أكثر مما غيرت الولايات المتحدة بشكل جذرى مواقف لها كانت تعتبر حتى ١١ سبتمبر موضع خلاف وجدل بينها وبين العالم بما فى ذلك حلفاؤها وذلك بما كانت تتخذ من مواقف انفرادية وتؤكد مفهوم «أمريكا أولا»، ومعارضتها لعدد من الاتفاقيات الدولية، وتبنيها لمواقف تشير النقد الشديد لدى قطاعات واسعة من الرأى العام العالمى. ورغم أنه لا يبدو أن تغيرا جوهريا قد حدث فى هذه المواقف الأمريكية إلا أنه من الواضح كذلك ان الولايات المتحدة أصبحت أكثر اقترابا من العالم واستعدادا للتعاون معه، ففى منطقة مثل الشرق الأوسط، ورغم أن ثمة ما يشير إلى أن واشنطن كانت قبل ١١ سبتمبر فى سبيل أن تعلن عن تصور لها حول النزاع العربى - الإسرائيلى، إلا أنه من الواضح أن أحداث سبتمبر قد ضاعفت من إحساس الولايات المتحدة بالحاجة إلى حل عاجل لهذا النزاع، وإدراك لما يمثله من قوة عدم استقرار فى منطقة الشرق الأوسط وقد يكون هذا وراء اقتراب خطاب وزير الخارجية كولن باول من القضايا الجوهرية للنزاع الفلسطينى - الإسرائيلى وفى منطقة مثل جنوب شرق آسيا، وبعد سنوات بدت فيها أمريكا غير مبالية بهذه المنطقة مثل ما ظهر فى استجابتها البطيئة للأزمة المالية الآسيوية، جاءت أحداث سبتمبر كى تظهر أن المنطقة ذات أهمية استراتيجية أولى بالنسبة لواشنطن، وانعكس هذا فى زيارات عدد من زعماء المنطقة للولايات المتحدة، وتخصيص ملايين الدولارات للفلبين فى حربها مع جماعات أبوسياف، وبدا ما تحتويه هذه المنطقة من ملايين المسلمين فى ضوء جديد. كذلك أملت أحداث سبتمبر أولويات جديدة بالميزانية وفى صياغة الفكر العسكرى وفى إعادة صياغة نشر القوة العسكرية والدبلوماسية فى الخارج، ونشط الجدل حول الاصلاحات العسكرية وإعطاء أولوية لقوات أكثر حركة ومجهزة بشكل مختلف، كما جاءت هذه الأحداث لكى تؤكد التحول من الوجود العسكرى الأمريكى من أوروبا المستقرة إلى آسيا الأقل استقرارا. وهى التحولات التى اعتبر كولن باول أنها تضع علامة جديدة NEW BENCHMARK للدبلوماسية الأمريكية ومعيارا جديدا للأصدقاء والأعداء. ومما قد لا يقل أهمية عن هذه التحولات فى السياسة الخاصة الأمريكية، هو التحول الذى حدث فى اتجاه الداخل، ونحو ما كان يعتبر جوهر النظام والحياة الأمريكية بما كان الفرد فيها يتمتع بضمانات دستورية وحريات مدنية وسياسية، وفى اتجاه معاكس جاءت أحداث سبتمبر لكى تطلق عددا من القوانين المقيدة للحريات مثل إعلان حالة الطوارئ الاستثنائية، وتخويل السلطات حرية التفتيش والاحتجاز والتنصت على المكالمات التليفونية، والاعتقال بدون أمر قضائى، وأهم من ذلك إنشاء محاكم عسكرية لمحاكمة المتهمين بأعمال إرهابية بدلا من المحاكم المدنية وبصورة غير مسبوقة، والتصريح للمخابرات المركزية بعمليات اغتيال سرية، وقد صبت جميع هذه الإجراءات فى اتجاه دعم المؤسسات الأمنية مثل FPI.CIA فضلا عن دعمها للمؤسسة الصناعية العسكرية التى كانت تخشى من تقلص نفوذها بسبب انحسار الحرب الباردة، وقد دفعت هذه الإجراءات إلى احتجاجات واسعة من منظمات حقوق الإنسان بل ومن مشرعين أمريكيين الذين اعتبروا أن الولايات المتحدة تقف على حافة كارثة تتعلق بالحريات المدنية، وأن ما يجرى فى هذا المجال يذكر بالحملة الماكارثية فى الخمسينيات.

وعلى المستوى الدولى وعلاقات الولايات المتحدة مع قوى رئيسية مثل روسيا والصين، فإن أحداث سبتمبر قد فرضت عددا من المساومات والحلول الوسط حول قضايا وخلافات فى السياسة الخارجية، فعلى المستوى الروسى الأمريكى، كان الرئيس الروسى الأكثر استجابة وتواؤما مع متطلبات التعاون مع

www.ethraadl.com
إثراء المعارف الرقمية

الولايات المتحدة، فقد حسم منذ البداية اختياره وأعلن دعمه للحملة الأمريكية ضد الإرهاب، وفضلا عن المساعدات الروسية المباشرة مثل إتاحة الأجواء الجوية، والمعلومات الاستخبارية ودعم التحالف الشمالى فى افغانستان، فقد سمح لدول الاتحاد السوفيتى السابقة فى آسيا الوسطى أن تقدم فضاءها الجوى، وقواعدها العسكرية للاستخدام الأمريكى والحرب فى أفغانستان، وقد استكمل الرئيس الروسى هذا التحول فى السياسة الروسية بما أبداه من تحول تاريخى تجاه حلف الناتو واستعداده للتعاون معه بل والعضوية فيه، وهو الاستعداد الذى قابلته قيادة الناتو بالإعراب عن استعدادها ان تشارك روسيا فى صياغة قرار الناتو حول عدد من القضايا المشتركة مثل مقاومة الإرهاب، والحد من انتشار الأسلحة المتقدمة، وإدارة مسئوليات حفظ السلام، وتبدو أهمية هذا التطور فى علاقة روسيا بالناتو فيما يمكن أن يؤدى إليه من تقليل معارضة روسيا لتوسيع الناتو لكى يضم دول البلطيق، وقد ألمح بوتين إلى ذلك حين ذكر أنه اذا تحسنت علاقة روسيا بالناتو بشكل كاف فإن ما يقلق روسيا حول توسيع الناتو قد يتقلص إلى حد كبير، ومع ذلك يبقى القول إن تحول علاقة روسيا مع الناتو جزء من الصورة الكبيرة فى علاقة روسيا مع الولايات المتحدة، وخاصة حول الاختلاف حول نظام الدفاع الصاروخى الأمريكى. وبرغم أن اجتماع القمة الأمريكى - الروسى فى ١٣ نوفمبر لم يتوصل إلى اتفاق حول موضوع الدرع الصاروخية، وصلته بمعاهدة الصواريخ المضادة لعام ١٩٧٢، ورغم أن الولايات المتحدة قد أعلنت انسحابها المنفرد من هذه المعاهدة فإن المنظور الموازى والذى قلل من اثر الانسحاب الأمريكى وجعل من رد الفعل الروسى هادئا هو المفاوضات التى تجرى بين البلدين للتوصل إلى خفض جذرى فى الرؤوس النووية التى يملكها الطرفان يقوم على ما أبدته واشنطن من استعداد لخفض يصل إلى ما بين ١٧٠٠ - ٢٢٠٠ رأس نووى وما أبدته روسيا من استعداد لخفض ترسانتها النووية بمقدار الثلثين. غير أنه يجب القول إن التقارب الأمريكى - الروسى الجديد لا يخلو من الشكوك والمخاوف من جانب روسيا، فمع التأييد الذى ابدته روسيا للجهود الأمريكية، إلا أنها لم تخف تأكيدها للاحتفاظ بسلطتها على الشيشان وجورجيا وخاصة فيما يتعلق بأنابيب البترول التى تربط حقول بحر قزوين بالأسواق الأوروبية وحرص روسيا على ان تمر عبر أراض تخضع لنفوذها، ولذلك يلاحظ تأكيدات المسئولين الروس أن تعاون دول آسيا الوسطى مع الولايات المتحدة يجب أن يقتصر فقط على الحملة المضادة للإرهاب وبشكل لا يؤثر على منطقة النفوذ التقليدية لروسيا فى آسيا الوسطى. أما الصين فيبدو تطور علاقات الولايات المتحدة معها بعد أحداث سبتمبر أقل وضوحا بكثير من العلاقات مع روسيا، ذلك أن نقاط الخلاف بين واشنطن وبيكين حول تايوان، وحول طموحات الصين فى بحر الصين الجنوبى، أقل عرضة للمساومة، والحلول الوسط، وبرغم هذا لا ينكر أن قادة الصين قد تقبلوا الحملة الأمريكية ضد أفغانستان، وكانوا قبل ذلك يقاومون مثل هذا التصرف ويعتبرونه تدخلا فى الشئون الداخلية للدول الأخرى.

أما مظهر التطور الآخر فى موقف الصين فهو قبولها للتشريع ياباني يسمح لليابان بتقديم مساعدات لوجوستيكية لأمريكا فى نزاع بعيد عن الشواطئ اليابانية وكانت الصين دائما تعارض دعم اليابان تحالفها الأمنى مع أمريكا، وقبل ١١ سبتمبر كان من المستحيل على زعيم صينى ألا يعترض بشدة على مثل هذا الدور العسكرى الواضح لليابان. وقد يكون هذا هو المقابل الذى قدمته الصين لما كانت تطالب به اليابان من اعتذار على السلوك الياباني تجاه الصين خلال الحرب الثانية وكانت اليابان تقاوم دائما تقديم مثل هذا الاعتذار، وجاءت أحداث سبتمبر لكى تقدم لرئيس الوزراء الياباني المبرر لزيارة الصين وتقديم الاعتذار. ويرتبط هذا، فيما يتعلق بالتطور فى المواقف اليابانية، بما أدت إلية أحداث سبتمبر من دفع للنقاش العام فى اليابان نحو تعديل مواد من الدستور اليابانى التى تحول دون اشتراك اليابان بقوات عسكرية فى المنازعات وتوسيع مفهوم هذه العمليات ليشمل الحرب ضد الإرهاب، وقد جدد هذا النقاش - مثلما سنرى فى الحالة الألمانية - إمكان خروج اليابان من حدود القوة الاقتصادية، إلى دور أكثر فعالية ووجود فى القضايا الدولية.ويذكر التطور الياباني بتطور مماثل فى السياسة الألمانية، ففى أول أكتوبر من هذا العام، وتحت تأثير أحداث سبتمبر ومقتضياتها، أعلن المستشار الألمانى شرودر عن تطور سياسى مهم منذ تأسيس ألمانيا الغربية وحيث ظلت تنأى بنفسها عن إرسال قوات إلى خارج نطاق حلف الأطلسى،

www.ethraadl.com
إثراء المعارف الرقمية

الأهرام

ويتضمن التطور الجديد الإعلان عن إمكانية التدخل العسكرى الألمانى فى الخارج بما فى ذلك امكان المشاركة فى عمليات قتالية - وقد يختلف المراقبون على ما إذا كان هذا التحول بفعل الوفاء الأخلاقى للولايات المتحدة أم أنه لتحقيق رغبة دفينة لاستعادة المانيا دورها الدولى الذى ظل على مدى الحقب الماضية دون مكانتها وقوتها الاقتصادية غير أنه من الثابت أن هذا التحول لا يعنى انبعاثا للقوة العسكرية الألمانية فثمة قيود والتزامات دولية تمنع من امتلاك نظم تسليح معينة مثل الأسلحة النووية أو الصواريخ المتوسطة والطويلة المدى. وتثير هذه التحولات فى علاقات القوى خاصة بين الولايات المتحدة وروسيا والصين سؤالا حول مدى استمراريتها، وهل هى تحولات حقيقية سيكتب لها الدوام والاستقرار أم أنها تكتيكات مؤقتة لمواجهة الضرورات العاجلة للحرب ضد الإرهاب؟ ثمة من يتشكك خاصة حول ما قد تكون الولايات المتحدة قد ابدته من استعداد للتعاون مع القوى الدولية الأخرى هل هو إجراء مؤقت لتحقيق غايات قصيرة الأجل، إلا أن هناك ايضا من يخطئون هذا التصور ويعتبرون ان أمريكا قد تغيرت بشكل لا رجعة فيه بفعل أحداث سبتمبر فالأمريكيون لم يعودوا يشعرون بالأمان فى الداخل ولذلك فإن تجاهلهم للعالم لم يعد يجدى.. كذلك يرى بعض المحللين أن هذه التحولات يمكن أن يكتب لها الاستقرار بفعل وقائع الوضع العالمى، ومنها ما أصبح يدركه زعماء روسيا والصين من ضرورات علاقات تعاونية مستقرة مع الولايات المتحدة والغرب عموما، ودواعى اندماجهم فى النظام العالمى السياسى والاقتصادى وأنه ليس أمامهم إلا هذا الخيار إذا ما أرادوا أن تتطور عملية بناء وتحديث بلادهم.. ومن هذه الوقائع كذلك وعكس ما كان عليه الحال عقب الحرب الثانية وتفكك تحالفه - أن العنصر الأيديولوجى لم يعد قائما أوعلى الأقل ليس بنفس القوة التى كان عليها بعد الحرب الثانية، هذا فضلا عن ان التحولات الجديدة تجرى فى عصر العولمة بجوانبها الإيجابية والسلبية وما توجده من مصالح مشتركة قوية فى مجالات التجارة والاستثمار والتكنولوجيا، وإن كان هذا كله لا يعنى غياب التنافس ولكنه التنافس المحكوم بضرورات التعاون.

وإذا كانت هذه التحولات التى اشرنا إليها تقع فى مجال العلاقات السياسية والدولية بين القوى الرئيسية فى العالم، إلا أنها يجب ألا تحجب تحولا آخر أو اسراعا بتحول أحدثته أحداث سبتمبر على المستوى الثقافى والحضارى، فقد أدت هذه الأحداث إلى أن تبرز من جديد مفهوم الصراع بين الحضارات والثقافات وجعلت هذا الصراع يبدو من الاحتمالات غير المستبعدة، برغم كل التحفظات والنيات الطيبة، وبشكل خاص بين الغرب والإسلام وحيث لم تبلغ العلاقة بين الجانبين مستوى من التوتروسوء الفهم منذ أيام الحروب الصليبية أو العهد الاستعمارى، وحيث أعادت هذه الأحداث تقديم الإسلام باعتباره، العدو الجديد للمدنية والحضارة، وأنه يمثل المشكلة الحقيقية وراء ظواهر الإرهاب، وهو الأمر الذى انعكس على صورة المسلمين ومجتمعاتهم، ووضعت الجاليات الإسلامية فى الولايات المتحدة والغرب، والتى كانت تتصور أنها أصبحت جزءا من نسيج هذه البلاد، موضع الشكوك والعداء، هذا فضلا عن أنها أبرزت حالة الاستقطاب القائمة بالفعل داخل المجتمعات الإسلامية بين القوى العلمانية والقوى الدينية بمسمياتها المختلفة.

د. السيد أمين شلبى

www.ethraadl.com
إثراء المعارف الرقمية